العميد

مجلة فصلية محكمة

تعنى بالأبحاث والدراسات الإنسانية

تصدر عن

العتبة العباسية المقدسة

مركز العميد الدولي للبحوث والدراسات

مجازة من

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

معتمدة لأغراض الترقية العلمية

السنة السادسة . المجلد السادس العدد الثالث والعشرون

ذو الحجة ١٤٣٨هـ أيلول ٢٠١٧م

الآخر في خطبتي زينب الكبرى عليها السلام

The Other in the Two Sermons of Zeinab Al-Kubra

أ.د. رحمن غركان عبادي
جامعة القادسية/ كلية التربية/ قسم اللغة العربية

Prof. Dr. Rahman Ghargan
Department of Arabic,College of Education,
University of Al-Qadesiya

rahmangar2013@gmail.com

تاريخ التسليم: ١٦/ ٤/ ٢٠١٧
تاريخ القبول: ٢٧/ ٦/ ٢٠١٧

خضع البحث لبرنامج الاستلال العلمي
Turnitin - passed research

ملخص البحث

ذهب البحث إلى قراءة خطبتي السيدة زينب الكبرى (عليها السلام) في الكوفة ودمشق متأملاً صورة الآخر في الخطبتين، بوجهي الصورة أعني الآخر السلبي وصفاته، ثم الآخر الإيجابي ومنزلاته. وإنما قصدت صفات السلبي في المبحث الأول لأن السلبية مثخنة بصفات شتى، وقصدت الخطبتان إظهارها في عصرها الذي كان وللتاريخ الذي سيكون لما يضمره ذلك الوصف، وما يفصح عنه من عِبَرٍ موصولة بالحقيقة ومن معان فيها للإنسانية كثير من العقيدة وكثير مما ينفع الناس ويمكث في الأرض، ولا سيما أن مدار التعبير الناطق بالحقيقة هو بيت النبوة.

أما في المبحث الثاني فقرأت الآخر الإيجابي و منزلاته، لأن الإيجابية في الخطبتين واحدة في مصدرها وإن تجلى في شخوص وأبعاد، ذلك أن الإيجاب في الخطبتين وحي وهو جواب معصوم، ومنزلاته تجلت في: رسالة الوحي، والنبوة و الإمامة. وكانت المنزلات هي الباث الحقيقي للخطبتين ولهذا بدت القرآنية رافداً رئيساً لهما في اتجاهين، الأول: هو الاقتباس المباشر من آي الذكر الحكيم، وقد ذهب البحث إلى قراءتها تفصيلاً. والثاني: التضمين غير المباشر لبعض آيات الذكر الحكيم وهو ما قصد البحث قراءته أيضاً.

Abstract

The actual study repairs to explicating the two sermons of Seida: Zeinab Al-Kubra (Peace be upon her) in Kufa and in Levant contemplating the portrait of the other on its merits and demerits scale .In the section one , does it tackles both the demerits as there is evident negativeness and focus on these two sermons as there is revelation to the epoch with its truth , humanity shades , doctrines and whatever does good to people lingers on earth , in time the most sapient abode to utter the truth is the abode of the prophetic progeny.

Yet the section two manipulates the merits of the other , as the positivesness , hyperberbele , stems from one source though there are many a character and a scope , since the merit in the sermon is inspiration , it is an answer of an infallible whose niche comes to the fore in the revelation message , prophecy and imamate , that is why such niches geminate the sermons and the Quranic presence takes so great a tributary to them through two isles : direct quotation from the Glorious Quran , as explicated in the study, and indirect quotation , the target of the study.

توطئة :

الآخر جار الأنا ، ومسافة حضورها في كثير من ممكناتها ، ومآل خطابها، وجهة حضورها ، ومدار تلقيها ، ومرايا تلفتها في (أناها) وفي الأشياء ، سواءً انصرفت دلالة الآخر إلى (الغيرية) أم ذهب القصد معها إلى المخالفة ، أم جاءت حاملة معنى المعارضة ، والآخر (أناه)موصولة به جدا ،ولكنها إذا نزعت إليها فقط بانت سلبية ، وإذا نزعت إلى التكامل مع الـ (أنوات الأخرى) بدا فعل حضورها يتجه إلى الإيجاب ، وفي هذه الثنائية بدت دلالة الآخر تأخذ مفهوما جدليا بسبب من تفاعلها مع : الأنا والذات والهوية والمكان والزمان ومعطياتها والنظر والسلوك وما يصدر عنهما ، والوعي وغيابه وما يسفر عن تناقضهما ، ولعل صورة الآخر تحتكم على كثير من الوضوح في معطيات الإيجاب وعلى كثير من الغموض في معطيات السلب .

ولهذا امتد مفهوم الآخر إلى فضاءات مختلفة ، نفسية وفلسفية [١] ، لما يستبطنه كل ما هو غيري من اختلاف أو مغايرة مع الذات لأن وعي الذات الوجودي يكون بناءً على الطرف الآخر ، بين لحظتي (ما كان) و(ما سيأتي) كونه وضعا يجعل الكينونة تتصرف بطريقة يحكمها الظرف ومعطيات راهنة ، ومن ثمة كان الآخر بعض مسافات الأنا إلى الجنة أو الجحيم [٢].

لأن الآخر مع (أناه) رغبة إثبات ، والذات مع رغباتها نزعات حضور ، ومن التقابل بينهما قد يكون الآخر خصماً وقد يكون صديقاً ، قد تكون اتصالاً وقد تكون انفصالاً ، إلا أن التلازم بينهما واقع يظلل الجميع .

وفي حياة الناس وحركة المجتمعات كما في الفكر والعلوم بدا الآخر أكثر شيء جدلاً لملازمته للـ (أنا) و (الهوية) وغيرها ، فيصير الآخر بالمفرد ، ويصير الآخر بالجمع ، ويصير الآخر بما يعيش فيه ومعه من تجارب : كالصداقة والقرابة والجوار ، والمنافسة والخصومة والعداء ، وغيرها بما يجعل التجارب تحدد وقد تنظم صلة الآخر بجواره وجاره وقبلهما بـ (أناه) وممكناتها ، سواء على صعيد الوعي أم في مساحتي : السلوك أو الفعل و النظرية ، أو الرؤية [٣].

ولعل أوضح صورة للـ (آخر) تلك التي تتمخض عن خطاب الحرب لأنه خطاب صراع يترجح بين وجود و إيجاد من جهة وبين الغياب أو ما يشبه العدم من جهة أخرى ، فإذا صدر عن الرجل فذلك شأن متوقع من واقع الحياة الذكوري ، ولكنه إذا صدر عن المرأة دل على استثناء يستدعي الانتباه والالتفات إليه ، ويستدعي الوقوف عنده، فإذا كانت المرأة موصولة بكلام الوحي ، قرب مكان ونسب دم و حضور زمان ، وانتماء ونظر وفعل ، ورؤية ورؤيا ، فإن كل ذلك يفصح أكثر مما يضمر ويعلن أكثر مما يستبطن ، وتكون قراءاته امتداداً في المستقبل أكثر منها سكوناً في ماض كان .

وفي ظل هذا الفهم ذهبت إلى قراءة كلام السيدة زينب الكبرى بنت علي بن أبي طالبعليهما السلام في خطبتيها الشهيرتين الموثقتين في سياق (أدب الطف) أعني خطبتها الأولى في أهل الكوفة ، والثانية في مجلس طغيان يزيد بن معاوية ، بين يدي استشهاد الإمام الحسين بن علي بن أبي طالب عليهما السلام وهنا تذهب القراءة إلى الآخر بحسب ما قالت به الخطبتان ، وقد توزعت القراءة على مبحثين ، هما : الآخر السلبي وصفاته ، والآخر : الوحي ومنزلاته .

وقد اعتمدت القراءة في المتن على كتاب (زينب الكبرى / من المهد إلى اللحد)[٤] ولما كان متن الخطبتين معلوم المصدر محدوداً في مساحة أسطره المكتوبة ، فقد استغنى الباحث عن إيراد الصفحات عند كل استشهاد ، لوضوح المتن من مجرد الإشارة إلى نسبة قائله .

ولما كان الآخر السلبي هو الباعث على الخطاب ، وأن الخطبة قد خصته بقصدها فقد جاء المبحث الأول معنياً به في هذه القراءة النصية ثم أن الخطابة كما فنون السرد توفر مادة ثقافية لتقديم صورة الآخر لأنها تعايش الحدث والوقائع وتقاربها مباشرة وربما نعايش بفضلها مشاهد حية من الواقع بكل تناقضاته[٥] .

ثم إذا كانت الثقافة البشرية تترجح بين قبول الآخر حينا ورفضه أحيانا أخرى ، فإن مدرسة آل بيت النبوة المحمدية تأخذ بقبول الآخر أخذاً إنسانياً نبيلاً يفسره قول الإمام على بن أبي طالب الشهير : (الناس صنفان ، إما أخ لك في الدين و إما نظير لك في الخلق)[٦] ، ثم أن الإسلام المحمدي قائم على قبول الآخر[٧] .

أولاً :

الآخر السلبي وصفاته :

جاءت خطبة الكوفة قصيرة نسبياً يوجهها أسلوبان هما : الاستفهام والتعجب وقد غلبت على لغة الاستفهام دلالة الاستنكار بشكل لافت .

وقد تضمنت الخطبة اثنتي عشرة صفة لذاك الآخر السلبي ، تقدمتها صفة الخائن : (يا أهل الكوفة ، يا أهل الختل والغدر !!) بأسلوب نداء مثخن بجرح التعجب ، ويعبر العطف بالنداء عن معنى قسوة الجمع بين سمتين : (الختل والغدر) كناية واضحة عن معنى الخيانة أو صفة الخائن موصولة بالمنادى . والصفة الثانية (النادم) في خلال أساليب : الاستفهام والدعاء والقسم والمقابلة في :(أتبكون؟ فلا رقأت الدمعة ولا هدأت الرنة.. أتبكون وتنتحبون ؟ أي والله ، فأبكوا كثيراً واضحكوا قليلاً ..) في البكاء ندم والدعاء عليهم غياب لموعظة وفي المقابلة المحكومة بالزمن تعبير عن خسران الدائم وغياب المؤقت ، فهو خسران مبين !!! والصفة الثالثة هي التردد والنفاق : (إنما مثلكم كمثل التي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثاً ، تتخذون أيمانكم دخلاً بينكم) في اقتباس قرآني يخاطب الذين لم يفوا بعهد الله من قوله سبحانه : (ولا تكونا كالتي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثاً تتخذون أيمانكم دخلاً بينكم أن تكون أمة هي أربى من أمة إنما يبلوكم الله به ، وليبينن لكم يوم القيامة ما كنتم فيه تختلفون) [٨] .

ثم تجمع الصفات : الرابعة والخامسة والسادسة ، من خلال أساليب : التنبيه والاستفهام والدعاء ، في قولها : (ألا ... وهل فيكم إلا الصلف النطف ؟

والصدر الشنف ؟ وملق الإماء ؟ وغمز الأعداء ؟ أو كمرعى على دمنة ؟ أو كفضة على ملحودة ؟ ألا ... ساء ما قدمت لكم أنفسكم أن سخط الله عليكم وفي العذاب أنتم خالدون) لتكون صفة الآخر هنا ذات ثلاثة معانٍ (صفات) : الزنيم الدنيء الكافر. حتى أن التثنية في الوصف تكررت في الاستفهام (الصلف النطف ..) وفي التشبيه (كمرعى على دمنة ..) وفي الدعاء (ساء ما قدمت لكم أنفسكم ...) .

وجاء التعبير عن الصفات بالجمل الاسمية إلا الدعاء فكان بالجمل الفعلية باقتباس من القرآن الكريم في قوله سبحانه :» ترى كثيراً منهم يتولون الذين كفروا لبئس ما قدمت لهم أنفسهم أن سخط الله عليهم وفي العذاب هم خالدون «[٩] .

وكأنها شرحت وفسرت الجملتين الأوليين من الآية : « ترى .... يتولون ...) ثم اقتبست الدعاء القرآني عليهم موصولاً بوصفهم بالكفر ، وإن ارتجال الخطبة ومجيء التضمين على هذا النحو من البناء المقصود في رصد صفات الآخر لدليل غني على تنفسها القرآن .واقتباس آخر للتشبيه في (كمرعى دمنة) مع قول أبيها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « إياكم وخضراء الدمن ؟ قيل :وما خضراء الدمن ؟ قال : المرأة الحسناء في منبت السوء «[١٠] . إلا أن معنى الكناية في التضمين انصرف إلى الملك والإمارة حين تكون في غير أهلها وعند غير مستحقيها ، ومن ثمة فهي توجيه للرأي العام ، إلى معنى اغتصاب الخلافة .

وفي الصفتين السابعة والثامنة تصف أربعة معان : (اليائس والآثم والمذنب وغير المغفور له) في : (فلقد ذهبتم بعارها وشنارها ، ولن ترحضوها بغسل بعدها أبداً !! وأنى ترحضون قتل سليل خاتم النبوة ومعدن الرسالة ، وسيد شباب أهل الجنة ، وملاذ خيرتكم ، ومفزع نازلتكم ، ومنار حجتكم ، ومدرة سنتكم ؟؟) .

فيكون العار صفة الآخر ثم الجرم غير المغتفر ، لتكون صفة العار موصولة بما لا يكفر .

وفي أسلوبي التعجب والاستفهام ما يعبر عن تواضع الكلام قبالة واقع الجريمة الموصوف مثل قصور أسباب الجريمة عن يد المغفرة ، لذا كانت الصفة التاسعة هي الخسران المبين في أسلوبي : التنبيه والتعجب اللذين اختتما باقتباس قرآني موصول بمعنى الصفة المستقبلي ، فأول الكلام وصف ماض ، وختامه بالاقتباس القرآني وصف مستقبلي ممتد : (ألا ساء ما تزرون ، وبعداً لكم وسحقاً، فقد خاب السعي ، وتبّت الأيدي ، وخسرت الصفقة ، وبؤتم بغضب من الله ، وضربت عليكم الذلة والمسكنة ..) إذ الاقتباس في ختام هذا الجزء من قوله تعالى : ((وضربت عليهم الذلة والمسكنة ، وباءوا بغضب من الله ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير الحق ، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون))[١١].

وفي المقطع الثاني والأخير ثلاث صفات للآخر هي : عداوة الرسول الخاتم ، وإتيان الكبائر ، وانعدام البصيرة ، فإذا استهلت أول الخطبة بنداء : (يا أهل الكوفة ..) فقد بدأت ختامها بـ (ويلكم يا أهل الكوفة ، مستهلة بالإفصاح عن أن أول الويل يطال عدو النبوة و عدو آلها ، فجاءت لغة الاستفهام ذات بث موجع ونزوع رثائي حاد ، ووصف الآخر من خلال جرمه حتى إن الوصف توزع على أربعة أسئلة هي أربع جهات ، كأنها تحيط الآخر بما لا يدع له منه فكاكا ، وجاء أول الاستفهام بالحرف ثم تكرر ثلاثاً بالاسم (أي) : (أتدرون أي كبد لرسول الله فريتم ؟؟ وأي كريمة له أبرزتم ؟ ، وأي دم له سفكتم ؟ ، وأي حرمة له هتكتم ؟؟؟) ثم من وصف أبعاد العداوة للوحي والنبوة تلك العداوة الباعثة على كل ذلك ، إلى وصف كبيرة الكبائر لتتضح صورة المجرم وصفته من خلال وصف فعله: (لقد جئتم بها :

صلعاء عنقاء ، سوداء فقماء ، خرقاء ، شوهاء ، كطلاع الأرض ، وملأ السماء !!!) إذ تعبر الاستعارات الست الأول عن جرم ليس بالقليل فيستر ، ولا بالسهل فيغفر، ولا بالغائب عنه الحق فيشهر ، ولا بالمحتاج إلى الإيضاح فيعبر ، إنما هو السوء ظاهراً وباطناً ، ودليلاً وعيناً ، وهو ما يملأ الأرض ظلماً والسماء حزناً وغماً ؛ وقد أوجزت في التشبيهين الأخيرين ما وصفت في الاستعارات الست ، لتعود الخطبة إلى الختام بالكناية عن انعدام البصيرة بجملة نهي وجملة نفي ، ثم توكيد المنهي عنه ، والمنفي بثلاثة مؤكدات هي : أن واللام ، والآية نفسها كونها هنا مقتبسا قرآنيا : (فلا يَستَخفّنكم المُهَل ، فإنّه لا يَحفِزُه البِدار ، ولا يَخافُ فَوتَ الثار ، وإنّ ربّكم لبالمرصاد)

إذ جاء الختام اقتباسا من قوله سبحانه : ((إن ربك لبالمرصاد))[١٢].

وقد ضمت خطبة الكوفة اثنتي عشرة صفة أولها الخيانة وآخرها انعدام البصيرة وكل صفات ينزع موصوفها إلى الأخذ باللحظة الراهنة أخذ بقاء دائم، والنزوع إلى الامتلاك نزوع بقاء يظن الموت منه بعيداً غير قادم ، ولهذا جاء ختام الخطبة لمآل الصفات السابقة .

أما صفات الآخر السلبي في خطبة دمشق فقد توزعت على تسع صفات رئيسة ، وثلاث صفات متضمنة ، وجاءت خطبة طويلة بقدر ثلاثة أضعاف خطبة الكوفة ،إذ حفلت بالتعبير الواصف والتوضيح الباعث على الإقناع ، وكأنها تكمل خطبة الكوفة ، حين جاء أول خطبة دمشق صادراً عن المعنى الذي اختتمت به خطبة الكوفة : (صدق الله كذلك يقول: ثُمّ كانَ عاقبةَ الذينَ أساؤوا السُّوأى أنْ كَذَّبوا بآياتِ اللهِ وكانُوا بها يَستهزئُون . أظَنَنْتَ يا يزيد حيث أخَذتَ علينا أقطار الأرض وآفاق السماء، فأصبَحنا نُساق كما تُساق الأُسارى، أنّ بنا على الله هَواناً وبك

عليه كرامة ؟! وأنّ ذلك لِعِظَم خَطَرِك عنده! فشَمَختَ بأنفِك، ونظرتَ في عِطفِك، جَذلانَ مسروراً، حين رأيت الدنيا لك مُستَوسِقة، والأمورَ مُتَّسِقة، وحين صفا لك مُلكنا وسلطاننا. مهلاً مهلا! أنَسِيتَ قول الله تعالى: ولا يَحسَبنَّ الذين كفروا أنّما نُملي لَهُم خيرٌ لأنفسِهم، إنّما نُملي لَهُم ليزدادوا إثماً ولهم عذابٌ مُهين ؟!) (١٣) جاءت معاني الإمهال التي أوجزتها لأهل الكوفة في ختام خطابها إياهم مفصلة في افتتاح خطبة دمشق ، وقد تضمنت التصريح المضمن لآيتين قرآنيتين ، وفائض كنايات في معاني : المغرور : (شمخت بأنفك) ، والواهم (صفا لك ملكنا) ، عديم البصيرة (أخذت علينا أقطار الأرض) ، أما معنى سوء العاقبة وهو المعنى الجامع ، فقد أوحت به الآيتان المستشهد بهما .

في الافتتاح كان المخاطب (يزيد) الذي اكتسب عن فعاله صفات: (الواهم، المغرور ، المجرم ، الفاسد ، الغاصب ...) ، موصولة كلها بسوء المنقلب / سوء العاقبة ، أما المقطع الثاني بعد الافتتاح فالمخاطب نفسه ، ولكن من خلال صفة من صفاته (ابن الطلقاء) وكأنها خاطبت راهنه أولاً ، ثم سلفه ثانياً ، إذ هو تمثيل له وتمثل لمنهجه واتصال به . ولذا جاء المقطع الثاني: (أمِن العدلِ، يا ابنَ الطُّلَقاء، تخديرُك حَرائرَكَ وإماءَك وسَوقُك بناتِ رسول الله سبايا قد هُتِكت سُتورُهنّ، وأُبدِيت وجوهُهنّ ؟! تَحْدُو بهنّ الأعداء من بلدٍ إلى بلد، ويستشرفهنّ أهلُ المناهل والمناقل، ويتصفّح وجوهَهنّ القريب والبعيد والدنيّ والشريف! ليس معهنّ مِن رجالهنّ وَليّ، ولا مِن حُماتِهنّ حَميّ، عتواً منك على الله ، وجحوداً لرسول الله ودفعاً لما جاء به من عند الله ..).

في افتتاح الخطبة قالت (يا يزيد) فجاءت صفات الآخر المعلوم موصولة به فرداً ، متصلة به شخصاً ،، راسمة أبعاد شخصية الطاغية بـ (الغاصب.. المغرور

... الواهم ... الظالم ... عديم البصيرة ، ...) . لكن المقطع الثاني استهلته بـ (ابن الطلقاء) فجاءت صفات الآخر متصلة بسلفه آخذة منه معاني الامتداد ؛ ابن الطلقاء وريث أفعال الطلقاء في النظرة والفعل حتى بدت المفارقة صارخة بين (تخديره إماءه وحرائره) ، و(سوقه بنات رسول الله سبايا)فبدت الجمل بعد المفارقة تقوم على التضاد (أهل المناقل ، وأهل المناهل ثم القريب والبعيد ، ثم الشريف والوضيع ثم الدنيء والرفيع) .

فإذا أفاضت في التضاد انتقل الكلام في هذا الجزء السلبي من جهتي التضاد (عتواً منك على الله وجحوداً لرسول الله ودفعاً لما جاء به من عند الله) بما يعبر عن صورة الآخر السلبي وضوحاً يتيح للمتكلم أن يرصد ملامحها ومعانيها بانتظام وإفاضة رصداً يقف معه المتلقي على الحقائق موقف الإظهار والإبانة بالوقائع لا بالخيال وبالعقل قبل النقل ، إلى المقطع الثاني في صفات أسلافه من الطلقاء كونه خليفتهم : (ولا غرو منك ولا عجب من فعلك ، وأنى ترجى مراقبة ابن من لفظ فوه أكباد الشهداء ، ونبت لحمه بدم السعداء ، ونصب الحرب لسيد الأنبياء ، وجمع الأحزاب وشهر الحراب ، وهز السيوف في وجه رسول الله – صلى الله عليه وآله وسلم – أشد العرب لله جحوداً وأنكرهم له رسولاً ، وأظهرهم له عدواناً ، وأعتاهم على الرب كفراً وطغياناً) .

ماضي الآخر (يزيد) بوصفه أباً ، إذ صدر في فعله عن مرجعية أسلافه، متمثلاً موقفهم من النبوة والنبي ومن الرسالة والوحي ، حتى أوجزت الخطبة من جهة الفاعل والفعل معاً ، حين بدت الجريمة على أنها (نتيجة خلال الكفر، وظبٌ يجرجر في الصدر لقتلى يوم بدر) ، رسم صورة الآخر السلبي بأسلوب الكناية عن صفة الحقد من خلال معنيين : الطبع والكراهية الحادة ، إفصاحاً عن معاني

الماضي الموغل في العداء حين يرثه المنتمون إليه نسباً ومنهجاً فإنهم سيورثون الحقد و يستعجلون العمل فيه وبه ، لذا رسمت الخطبة صورة الحاقد بعد ذلك بوضوح الفعل / الجريمة (فلا يستبطئ في بغضنا أهل البيت من كان نظره إلينا شنفاً ، وإحناً ، وأضغاناً ، يظهر كفره برسول الله ، ويفصح عن ذلك بلسانه ،وهو يقول: فرحاً بقتل ولده ، وسبي ذريته ، غير متحوب ولا مستعظم ، يهتف بأشياخه : لأهلوا واستهلوا فرحاً ولقالوا : يا يزيد لا تُشَلْ)

حتى إن أسلوب الخطبة حين يأتي للرسم بأسلوب الكناية يفصح عن المعنى المراد من ذلك الرسم كما في جملة (من كان نظره إلينا شنفاً) فتأتي موصولة لصفات توضيح الكناية عن (الحقد) مرة بالوصف المباشر للآخر الحاقد ، وأخرى بالاستشهاد بنص كلامه .

وحين يأتي كلام الخطبة إلى وصف الآخر السلبي من خلال فعله يأتي أسلوب الكناية راسماً الموصوف القاتل بكيفية يفصح الكلام فيها عن معاني القتل أكثر مما يضمر من ملامح الجريمة ، عل الرغم من أن المجاز إيحاء أكثر منه إفصاحا وإعلاناً ، لأن الفعل المكني عنه يصدر عن قسوة تضمر وحقد يستبطن بما يجعل الفعل الإجرامي هائل الوحشية ، لذا وصفه كلام الخطبة : (تنطف أكفهم من دمائنا ، وتتحلب أفواههم من لحومنا ..) إذ الإيغال في الدماء بالأكف والأفواه هو إيغال بالظفر والناب ، إيغال حيواني متوحش قاس ، فكيف إذا كان في دماء النبوة !! لذا ترسم صورة الآخر السلبي بأسلوب التعجب : (فالعجب كل العجب لقتل الأتقياء ، وأسباط الأنبياء ، وسليل الأوصياء ، بأيدي الطلقاء الخبيثة ، ونسل العهرة الفجرة !!) . إذ تصف الخطبة الماضي بصفات الأمس التي ظلت متوارثة إلى اليوم ،وبرموز الأمس القريب ، الذين نسلوا أبناءهم في اليوم الذي تصف نسلاً ، يكرر

الفعل ويجتر الحقد ، ولعل اللافت في ذلك الوصف ، أن رسم الفعل أوقع في إيضاح الصورة من رسم الصفة أو التعبير عنها ، ، على الرغم من أن الصفة بنية عميقة ، والفعل بنية ظاهرة ، لأن الارتجال في الخطبة معني بتجربة الفعل الإجرامي الذي يشي ويفصح عن صفات الحقد الباعثة .

ولهذا يذهب كلام الخطبة إلى الإفصاح عن أن صفة القاتل طبع إجرامي فيه ، والحاجة إلى تعرية أفعاله ضرورة بناء وليست مجرد وصف لجرم وقع : (وما استصغاري قدرك ، ولا استعظامي تقريعك توهماً لانتجاع الخطاب فيك ، بعد أن تركت عيون المسلمين ـ به ـ عبرى ، وصدورهم ـ عند ذكره ـ حرى ، فتلك قلوب قاسية ، ونفوس طاغية ، وأجسام محشوة بسخط الله ، ولعنة الرسول ، قد عشش فيها الشيطان وفرخ ، ومن هناك مثلك ما درج).

لأن الخطبة ترسم صورة الآخر لا لأن الخطاب يجد في ذلك الآخر منتجعاً ، يبعثه على التنبه على جرمه لأنه لو كان يعي مثله لما وقع في الفعل الإجرامي الذي دعا إلى كل ذا ، بل لأن الرسالة لا بد لها من مبين ودليل قول يلي الفعل أو يسبقه . فجسد الصورة ، أعني الآخر هيكل محشواً قلوباً قاسية ونفوساً طاغية ؛ حتى أنها (تستصغر قدره ، وتستعظم تقريعه) ولكن الآخر يلفظ أنفاس الصفة السلبية ، والآخر السلبي من الحقد الباعث على الجريمة الناتجة عنه ، حين يقف عن صفة الفعل وملامحها وسمة السلوك وأبعادها ولذلك يجتر الحقد أنقاضه اجتراراً، فيما يجدد الحق الناس والزمان والمكان تجديداً .

ثانيا :

الآخر الإيجابي ومنزلاته :

رسمت الخطبتان صورة الآخر السلبي بألوان من صفات كثيرة لعل أوضحها : الكافر ، الظالم الغاصب ، القاتل ، المجرم ، الغادر ، ...وركيزتها أن ذلك الآخر ظلم نفسه أولاً بأن اغتصب حقاً ليس له ، وليس هو منه في شيء حتى قتل في حرب تمسكه بباطله أبناء الأنبياء ، لذا بدت الصفات السلبية أقل من طاقة الكلام على الإحاطة بكبائر الفعل ومأساويته ، مع أنه أخذ المساحة الأوسع من الخطبتين .

أما الآخر الإيجابي فقد توزع على ثلاثة مطالع هي : الوحي والنبوة والإمامة ؛ وقد بدت السيدة زينب ﷺ بدءاً من مطلع كل من الخطبتين تصل حضورها بهذه المطالع ، نسباً ولفظاً وسلوكاً .إذ جاء استهلال الخطبة الأولى بـ : (الحمد لله والصلاة على أبي : محمد وآله الطيبين الأخيار) أما استهلال الثانية فكان : (الحمد لله رب العالمين والصلاة على جدي سيد المرسلين) إذ قالت في الدعاء الأول للرأي العام في مدينة أبيها (عليهما السلام) : (علي أبي) لأن المتلقي يدرك أنها ابنة رسول الله ، ويعتقد أيضاً ، فكأنها خاطبتهم باعتقادهم ورسمت لهم الصورة التي بها يتعبدون وهم بها مؤمنون ، ولهذا رسمت في الخطبة كلها صفات المخاطبين (أهل الكوفة) عارضة الصفات التي يعرفون والأفعال التي يقترفون بمعنى التي اقترفوا حتى بدا الآخر :نادماً منكسراً آيساً منهزماً ، مرعوباً خائفاً ، لا تحمله أقطار الأرض ولا تغطيه آفاق السماء ، لأنه قطع أوتاد الأرض فمنع عن نفسه أسباب السماء : (أفعجبتم إن أمطرت السماء دماً ، ولعذاب الأخرة أخزى ، وأنتم لا تنصرون) .وقد كان الوحي في الخطبة الأولى آياً مضّمنا أو مقتبساً أو مستشرفاً ، والإمامة أشبه بنبوة مقتولة لأن

المخاطب هنا لم يراع للوحي منهجاً ولا للنبوة سنة ولا للإمامة سيرة ولا للمطالع الثلاثة معنى أو نهجاً لذا جاءت الخطبة : حادة في الوصف دقيقة في الرصد ، موصولة بأسبابها في العرض والتمديد والتشخيص

أما في خطبة الشام : دمشق فقد استهلت الخطبة بـ : (الصلاة على جدي سيد المرسلين) لأن السامع بدءا من الطاغية يزيد يراها حفيدة النبوة وسليلة الإمامة ، وفي (جدي) تعبير مباشر عن كونها (حفيدة النبوة) مباشرة (حفيدة المرسلين) وكأنها تشير إلى أن يزيد ينكر وقد استيقنها من قبل إنها حفيدة المرسلين ، هي معنية حتى في هذا الموقف برسالة جدها صلى الله عليه وآله وسلم لأن السياق الذي سبق الخطبة تضمن تمثل يزيد بشعر منكر للرسالة من قول ابن الزبعري :

لعبت هاشم بالملك فلا خبر جاء ولا وحي نزل

مع أن (يزيد وأباه) زعما أنهما يحكمان الناس بما كان من ذلك الخبر وما جاء في ذلك الوحي !!! ، وهذه مفارقة درامية بدا معها استهلال الخطبة بالكلام الذي كان معبراً ودقيقاً وموحياً باعثاً على التفكير . فأي مفارقة هذه وأي إضمار لمعنى اغتصاب الحكم ؟؟ ، بما يجعل صورة الآخر : يزيد : فرداً و أسرة حكم موصولين لصورة : الغاصب ...الكاذب ....المنافق .

ومن هنا يدرك المتلقي أن المطالع الثلاثة للآخر الايجابي : (الوحي والنبوة والإمامة) حضرت في خطبة دمشق ، لأن حفيدة النبوة وابنة الإمامة وسكينة الوحي، تذهب في ذلك الموقف إلى الإيضاح والبيان بنص الوحي ، فجاءت الآيات نصاً مباشراً بالاقتباس ، وبنبض النبوة ، فعرضت حقيقة آل بيت النبوة من خلال أعداء النبوة ، وأوضحت معنى الإمامة من خلال موقف شهدائها كون الإمامة

شاهداً وشهيداً حتى بمعنى الفداء الذي يذهب إليه لفظ (شهيد) في سياقاته الصحيحة .

حتى جاء أول الخطبة اقتباسا من نص كلام الوحي : ((ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوأَىٰ أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ الله وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ)) (١٤) .

ثم أن الآيات الأخرى التي ذهبت الخطبة إلى اقتباسها بالنص ولم تأت على تضمينها بالمعنى ، موصولة بالتعبير عن تكامل المطالع الثلاثة (الوحي والنبوة والإمامة) في بناء المنهج وفي رسم مواقف التكامل .

وهذا ما يفسر أن الدعوة إلى الثورة في هذه الخطبة في مجلس الطاغية يزيد ، جاءت من خلال لغة الدعاء ، إيذاناً بالتعبير عن أن الله ناصر أولياءه ،عن خذل الناس متخلين عن واجبهم ، ويفهم من دعاء الخطبة الذي قال ، :(أللهم خذ بحقنا وانتقم من ظالمنا ، واحلل غضبك على من سفك دماءنا وقتل حماتنا ، وهتك عنا سدولنا) إن الدعوة إلى الله سبحانه إنما هي لنصرة من سيثورون للثأر ، وينتقمون من الكفر ، ويحل بأيديهم غضب الله على الظالمين .

ومن ثمة فإن صفات المطالع الثلاثة : الوحي / النبوة / الإمامة . ترسم صفات الآخر الإيجابي ومن ذلك صفة الثائر : (لئن اتخذتنا مغنماً لتجدن بنا وشيكاً مغرماً، حين لا تجد إلاّ ما قدّمت، وما ربّك بظلام للعبيد..)

وكما في نص الدعاء السابق ، فإذا كان نص الخطبة يفصح بالثورة ويفتي بها وجوباً فإن بعض نصوصها توجه الثورة ولاسيما في نصوص الخطبة التي تجمع بين الثائر الناصر في الدنيا وما سيؤول إليه الحال في الآخرة : (يوم ينادي المنادي: ألا لعن الله الظالم العادي ..

والحمد لله الذي ختم لأوليائه بالسعادة ، وختم لأصفيائه بالشهادة ، ببلوغ الإرادة ونقلهم إلى الرحمة والرأفة والرضوان والمغفرة).

وصفة الثبات على الحق ، بدءاً من عنوان المنهج في الطف إذ في صفة الثبات الحسيني نهج لأتباعه ، في الحال والمآل لأن المبدأ والمنهج الذي ينفذه مسددان بالوحي ، فالبقاء لهما ، هما الوارثان : (فكد كيدك، واسع سعيك، وناصب جهدك. فو الله لا تمحو ذكرنا، ولا تميت وحينا، ولا تدرك أمدنا، ولا ترحض عنك عارها..) .

وصفة القرآنية في الآخر الإيجابي تأخذ منحيين أولهما التضمين المباشر للآيات القرآنية : من ذلك الآية (٦٩- ٧٠) من سورة آل عمران والآية (١٧٨) من سورة الكهف والآية (١٨٢) من آل عمران،والآية (٦١) من سورة البقرة ، والآية (١٤) من سورة الفجر ، وثانيهما التناص مع بعض آي القرآن الكريم ، من ذلك التناص مع الآية (٨٠) من سورة المائدة في خطبة الكوفة : (ألا ساء ما قدمت لكم أنفسكم ، أن سخط الله عليكم وفي العذاب أنتم خالدون) والتناص مع الآية (٨٠) من سورة المائدة في الخطبة نفسها : (إنما مثلكم مثل التي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا ...) و التناص مع الآيات : (٦٠) من سورة النجم ، و (٨٢) من سورة التوبة ، و (٤٣) من سورة النجم أيضاً ، من قولها في خطبة الكوفة : (أي والله ، فابكوا كثيراً واضحكوا قليلاً ..) مع لحاظ أن المعنى : (قليل الدنيا الزائل وكثير الآخرة الدائم ، لا يفاضل بينهما عاقل) هو معنى ارتكزت عليه الخطبتان ، لأن القليل الدنيوي الزائل ، في الخطبتين تحصّل عليه يزيد أو ظن !! حتى تضمنت خطبة دمشق أسئلة هذا المنحى :(وهل رأيك إلا فند ؟ وأيامك إلا عدد ؟ وجمعك إلا بدد؟) ثم التناص مع الآية (١٦) من سورة (فصلت) في قولها من خطبة الكوفة : (أفعجبتم أن أمطرت السماء دماً ، ولعذاب الأخرة أخزى ، وأنتم لا تنصرون) .

ومع الآية (٩٠) في سورة هود في ختام خطبة دمشق ، وفي وصف تكبر يزيد وعنجهيته ، تتناص الخطبة مع الآيات (١٨ ، ١٩ ، ٢٠) من سورة المدثر ومع الآيتين (٣٧، ٣٨) من الإسراء ، ومع الآية (٢٧) من سورة الفرقان .

ومن ثمة فإن الاقتباس مع آي من الذكر الحكيم والاقتباس من آيات مباركات أُخر ، كان أوضح صفات بيت النبوة ، ليكون الوحي هو راسم الصورة والمفصح عنها والمبين ، وحي السماء ، هو الذي رسم صورة بيت النبوة لتكون (أنا) النبوة المتعددة في (الآل) في وعي الناس ولدى الواقع هي آخر سماوي ، ولهذا كانت المطالع الثلاثة : أعني : الوحي ، والنبوة ، والإمامة ، موصولة صلة اكتمال بـ (أنا) واحدة وقد رسمت الخطبتان صفات الآخر الإيجابي في معنى واحد وهو (إرادة السماء) كما إن آل بيت النبوة هم النبي الأكرم ﷺ حضوراً وتمثلاً فكانت صفات الإيجاب لديهم سماوية المصدر ، أرضية التجلي والحضور ، بشرية التحقق والإنجاز ، يصدر عنها الآخر ولا تصدر إلا عن السماء ، وتجيء حاضرة تمثل الواقع وليست هي إلا الحقيقة ، ومن ثمة كانت الحقيقة واحدة وإن تعددت تجلياتها وأبعادها وحضورها .

إن الذات النبوية التي يرسمها الوحي أو يصفها هي حقيقة ، وتمثل الآخر لها واقع ، وحضوره في معطياتها وقائع ، وإذا كانت الذات تجد تحققها في الوصول إلى الآخر والحضور عنده فإنها في حال النبوة تجلي الحقيقة ليكون الواقع قريباً منها أو يتمثل في الأقل في بعض معطياتها .. والآخر مع النبوة تتعدد صفاته أما النبوة فصفتها الحقيقة ولهذا عبرت الخطبتان عن الآخر الإيجابي بوصفه ايجاباً مطلقاً ، لا يأتيه الباطل من غياب أو حضور ، وصفاته وإن تعددت أبعادها فهي الحقيقة ، أما الآخر السلبي منه والإيجابي فصفاته وقائع يمنحها اقترابها أو ابتعادها من حقيقة النبوة صفة الصواب والإيجاب أو ينزعها عنها

وقد نقلت الخطبتان ، أن صورة الآخر التي رسمها يزيد لنفسه وفي أذهان أدواته وممكناته : أن الوحي صناعة أرضية ، والنبوة مجال بشري مصنوع هو الآخر، ولهذا كانت صفات الآخر (اليزيدية) أكبر من الشرك وأوسع من الكفر . فيما جاءت صفات الإيجاب في الخطبتين تصفان النبوة وآلها بكونهما الحقيقة المطلقة ، وأن صفات التضحية والفداء من مجربات تلك الحقيقة ولذلك فهي حقيقة لا زوال لها ، وتجلياتها صفات لا يطالها الغياب ولا يتغلب عليها الواقع المادي الأولي لأن حضورها المتحقق دائم الجريان .

نتائج البحث :

لعل أوضح ما خلص إليه البحث هو ما يمكن إيجازه في ما يأتي :

١- لما كان الآخر السلبي هو صانع المأساة التي تحدثت عنها الخطبتان وهو نفسه الذي توجهت إليه الخطبتان أيضاً فقد حفلتا بإيراد صفاته السلبية فكانت : الكافر ، الغادر ، الظالم ، الغاصب ، الخاسر ، اليائس ... ، وقد وصفت الخطبتان تسع عشرة صفة سلبية لذلك الآخر المقصود ، وتعزز الوصف بالقرآنية اقتباساً أو استيحاءً مع غلبة الاقتباس المباشر على غيره .

٢- جاء استهلال كل خطبة من الخطبتين مراعياً خصوصية المخاطب ومدار استيعابه للواقعة ومأساويتها ، وكأن السيدة زينب الكبرى ﷺ أنزلت الجمهورين في الخطبتين منزلتيهما ، في المخاطبة والوصف والتعليل ، مع أن الآخر السلبي فيهما واحد ، وإن تعددت صفاته وأوصافه .

٣- أوحت الخطبة بإنزال الآخرين من الأعداء منازلهم على ظلمهم ! حتى عرت الظالم مفصلة صفاته السلبية بوضح بياني لافت ، ليتنبه المتلقي إلى عنايتها بأن يأخذ الحق مداه ومنزلته الأولى وهو ما يفسر غلبة الاقتباس القرآني على غيره .

٤- جاءت منازل الإيجاب منتمية للوحي مصدراً رئيساً في ما انتمت صفات السلب للشيطان موجهاً وقائداً وهو ما يفسر حرص الخطبتين على إخراج الناس من رفقة الشيطان وإغراءاته إلى هدى الله ونور النبوة .

٥- تدرّجت الخطبتان في عرض حجج الإقناع عرضاً عقلياً يستحوذ على الفهم والوعي ويستدرج مجساتهما وكانت خطبة دمشق أبعد في الحجج وأكثر في استحضار القرآن وأبعد في تنبيه الآخر إلى بشاعة الجريمة في تلك الواقعة .

٦- يصدر أسلوب الخطبتين عن سمات القرن الهجري الأول ولاسيما في أساليب البيان والمحاججة بتوظيف الخطاب القرآني ، وبدا صدورهما عن مشكاة النبوة لافتاً لنظر المتلقي : روحاً وعرضاً وأسلوباً ومعاني قرآنية .

الهوامش:

١- دليل الناقد الأدبي ، ميجان الرويلي ود سعيد البازعي ، المركز الثقافي العربي للنشر والتوزيع ، ط٥ ، بيروت ، ٢٠٠٧م . ص ٢١

٢ – نفسه ، ص٢٢

٣ – في معرفة الآخر ، بن سالم حميش ، دار الحوار والنشر والتوزيع ، ط ٢ ، دمشق ، ٢٠٠٣م، ص٥ .

٤- ينظر : زينب الكبرى من المهد إلى اللحد ، محمد كاظم القزويني ، حققه وعلق عليه : مصطفى محمد كاظم القزويني ، دار المرتضى ، ط١ ، بيروت ، ٢٠٠٧م .

٥ – صورة الآخر في التراث العربي ، د ، ماجدة حمود ، الدار العربية للعلوم ، ناشرون ، بيروت ، ٢٠١٠ م ص ٢١ .

٦ – نهج البلاغة ،بشرح محمد عبده ، ٣٩٣ / ٣ .

٧ – ثقافة قبول الآخر ، ممدوح الشيخ ، مكتبة الإيمان – المنصورة ، مصر ، ٢٠٠٧ م ، ص ١٧٦ .

٨ - سورة النحل / ٩٢

٩- سورة المائدة / ٨٠

١٠ – المجازات النبوية ، الشريف الرضي ، شرح وتقديم : طه عبد الرحمن ، البابي الحلبي ، مصر – القاهرة ، ط١ ، ١٩٧٠ ، ص٦٠.

١١ – سورة البقرة / ٦١

١٢ - سورة الفجر / ١٤

١٣ – سورة الروم / ١٠

١٤ - سورة آل عمران / ١٧٨

١٥ - سورة الروم / ١٠

المصادر والمراجع :

القرآن الكريم

١. ثقافة قبول الآخر، ممدوح الشيخ ، مكتبة الإيمان– المنصورة ، مصر، ٢٠٠٧ م.

٢. دليل الناقد الأدبي ، ميجان الرويلي ود سعيد البازعي ، المركز الثقافي العربي للنشر والتوزيع ، ط٥ ، بيروت ، ٢٠٠٧م .

٣. زينب الكبرى من المهد إلى اللحد ، محمد كاظم القزويني ، حققه وعلق عليه : مصطفى محمد كاظم القزويني ، دار المرتضى ، ط١ ، بيروت ، ٢٠٠٧م .

٤. صورة الآخر في التراث العربي ، د ، ماجدة حمود ، الدار العربية للعلوم، ناشرون ، بيروت ، ٢٠١٠م .

٥. في معرفة الآخر ، بن سالم حميش ، دار الحوار والنشر والتوزيع ، ط ٢ ، دمشق ، ٢٠٠٣م .

٦. المجازات النبوية ، الشريف الرضي ، شرح وتقديم : طه عبد الرحمن ، البابي الحلبي ، مصر – القاهرة ، ط١ ، ١٩٧٠ .

٧. نهج البلاغة ،بشرح محمد عبدة . دار المتقين ، ط ١ ، بيروت ، ٢٠١١ م .